العنوان:	الفئات الاجتماعية في الغرب الاسلامي : التسميات والمفاهيم
المصدر:	مجلة البحث التاريخي
الناشر:	الجمعية المغربية للبحث التاريخي
المؤلف الرئيسي:	جسوس، عز الدين
المجلد/العدد:	ع3
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	2005
الصفحات:	32 - 45
رقم MD:	594285
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
اللغة:	Arabic
قواعد المعلومات:	HumanIndex
مواضيع:	الطبقات الاجتماعية، الفئات الاجتماعية، المصطلحات، المغرب العربي
رابط:	https://search.mandumah.com/Record/594285

الفئات الاجتماعية في الغرب الإسلامي، التسميات والمفاهيم

عز الدين جسوس

نهدف في هذه الدراسة إلى تحديد عدد من التسميات المستعملة في أدوات بحثنا للتعرف على فئات من الرعية، أو الطبقات الاجتماعية، التي كان لها أدوار سياسية وأساسية في الحياة العامة[1]. وعلينا أن ننبه هنا إلى أن هذه التسميات لا تهم أهل البادية وسكان القرى[2]. لأن كل المعلومات التي لدينا تنصب أساسا على سكان الحواضر بشكل خاص.

تقسم المصادر والدراسات الحديثة فئات المجتمع بشكل عام إلى "الخاصة والعامة"[3]. والخاصة هي الفئة التي تتكون من أصحاب النفوذ والسلطة وهي تتكون من جميع عناصر

1- انظر ماقدمه من أفكار مفيدة حول الطبقات الاجتماعية بالأندلس Benaboud M'hammad (1980-1981), 'Asabiyya And Social Relations In al Andalus During The Period of The Taifa States (11th century A.H.) in Hesperis Tamuda, vol. (19). Fasc. Unique, p5-45؛ ثم ما توصل إليه Clément françois (1997), Pouvoir et Légitimité en Espagne musulmane à l'époque des Taifas (V./X siècle) L'iman fictif, Paris, Montréal, Harmattan, الذي درس ما أسماه "بدور الخاصة والعامة" في الأحداث السياسية خلال حكم الطوائف. غير أن دراسته يطبعها نقص مصدري واضح انعكس على النتائج والتفسيرات التي توصل إليها، مما جعله يسقط في عدد من المزالق سوف نشير إليها في معرض البحث. ونورد على سبيل المثال هنا ما وقع فيه من أخطاء عند تحديد عدد من التسميات التي تنعت بها الخاصة والعامة؛ ولعل أحدث الدراسات وأهمها والتي نشرت مؤخرا والتي تبحث في الفئات الاجتماعية هو ما نشره إبراهيم القادري بوتشيش(1998) مباحث في التاريخ الاجتماعية للمغرب والأندلس، خلال عصر المرابطين، بيروت، دار الطليعة، ص215-118، الذي درس الطبقات الاجتماعية في علاقة مع مستواها الاقتصادي ودورها في البنية الاجتماعية العامة.

2- القادري بوتشيش إبراهيم (1994)، "الطبقة في الغرب الإسلامي بين المفهوم العام وخصوصية الواقع التاريخي، في دراسات عربية، ع (6/5) السنة 30 مارس أبريل، ص77-89، ص79 ؛ القادري (1998)، مباحث، ص119.

3- على سبيل ا لمثال، المرادي أبو بكر محمد الحضرمي، كتاب االسياسية أو الإشارة في تدبير الإمارة، بعناية سلمي النشار،الدار البيضاء،دار الثقافة،1981 ص 84-85 ؛ الطرطوشي، أبو بكر، كتاب الحوادث والبدع،تحقيق عبد المجيد التركي، بيروت، دار الغرب الإسلامي،1410-1990، ص78؛ ابن الآبار، محمد بن عبد الله القضاعي، التكملة لكتاب الصلة، بعناية عبد السلام الهراس، الدار البيضاء، دار الفكر، بدون تاريخ،ج1، ص243-244؛ Benaboud, (1980-1981), Asabiyya, p 11-13 ; Clément F. (1997), Pouvoir, p 129-157

المجتمع السياسي الحاكم من أمراء وقواد عسكريين وولاة وفقهاء، كما يندرج ضمن هذه الفئة الكتاب وأفراد الأسر الكبرى التي تربطها علاقة بالسلطة السياسية[4]. أما العامة فهي ما يقع دون الفئات السابقة. غير أن هناك فئة تقع بين هاتين الطبقتين هي الطبقة الوسطى[5]. وهذه الطبقة ينعتها امحمد بن عبود بأنها أحد عوامل التوازن بين الخاصة والفئات الدنيا من المجتمع.[6]

أما المصادر فلا تفصح عن أية تسمية لأصحاب الفئة المتوسطة لأنها تدرج كل مادون الفئة الخاصة ضمن تسمية "العامة". على الرغم من أن أبا وليد الباجي يشير إليها بوضوح "وأسلم الطبقات الطبقة المتوسطة" التي يجعلها ما بين الطبقة العليا والطبقة الدنيا[7]. وحدد ابراهيم القادري بوتشيش الفئات التي تضمها هذه الطبقة في التجار "والصيارفة وكبار السماسرة" وأصحاب المهن الحرة وأصحاب الوظائف المتوسطة"[8]. زيادة على أنهم كانوا يتولون المناصب الإدارية[9].

ولدينا تسميات أخرى تنعت بها الرعية والطبقات الاجتماعية وهذا ما حاول François Clément[10] أن يوضحه، إلا أنه لم يتوصل إلا إلى رسم صورة عامة ومضطربة عن الموضوع نظرا للنقص المصدري الذي أعاق دراسته.

نبدأ إذن بالتسميات التي لها معنى عام والتي تطلق على جميع الرعية وهي "الناس". إن كلمة الناس تعني في جميع المواضع التي ذكرت فيها جميع الرعية أو جميع الطبقات الاجتماعية. مثل:"واجتمع الناس بقرطبة على تقديم الوزير أبي الحزم ابن جهور"[11]. وعندما

---

[4]- القادري (1998) و ص 131 و11 Benaboud, (1980-1981), p

[5]- القادري (1998)، ص 159-160؛ Benaboud M., (1980-1981), Asabiyya, p 11-12

[6] -Benaboud, (1980-1981), Asabiyya, p 21.

[7]- وصية الشيخ أبي الوليد الباجي لولديه، نشر هاجودة عبد الرحمن هلال في مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلاميةبمدريد،ع3 م1، 1955ص 45.

[8]- مباحث، ص 159-169.

[9] -Benaboud, (1980-1981), Asabiyya, p 25.

[10] - (1997), p 158-160.

[11]- ابن عذاري، المراكشي، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، بعناية إحسان عباس، بيروت، دار الثقافة، 1983، ج 3، ص 185.

توجه المعتمد إلى المغرب للقاء يوسف "شيعه الناس إلى محل ركوبه"[12] وعندما توفي المستعين ابن هود مال ابنه عبد الملك إلى المسيحيين وإلى حاكم قشتالة وأنكر الناس ذلك فاستدعوا قائد علي بن يوسف[13]. وكان أحد الفقهاء المالقيين وهو أبو محمد عبد الله بن الحسن الأنصاري "محببا إلى الناس"[14]، والأمثلة كثيرة.

إن وجود هذه التسمية في جميع مواطن سياق الكلام التي جاءت فيها، لاتخصص فئة دون أخرى، فالناس يقصد بهم نتيجة لذلك جميع فئات الرعية بما في ذلك الخواص والعوام أو الخاصة والعامة. ومن ثم ليس هناك أساس لما يذكره François Clément من أن "الناس" تعني العامة.[15]

ثم نجد تسمية:"أهل البلد" مثل ما يقوله ابن بلقين عن رعية غرناطة" ولما التفتنا إلى أهل مدينتنا ومذاهبهم".[16] ونجد "وكان أهل أغمات قد بعثوا لعلي بن يوسف"[17]. ونجد "وكان بعض أهلها يميلون إلى ابن هود وبعضهم إلى ابن ذي النون"[18]. ونجد "ومال أهل الثغر وعامة البلد إلى أبي جعفر بن هود"[19]. ونجد "وأقام أهل طليطلة بعده (أي بعد القادري بن ذي النون) أياما كالسائمة المهملة ليس عليهم أمير"[20]. لاشك أن جميع هذه المعاني وغيرها كثير[21] تصب في المعنى نفسه الذي تؤديه كلمة " ناس" السابقة أي أنها تعني

-12 ابن الخطيب لسان الدين محمد ابن عبد الله، **أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلال من ملوك الإسلام وما يجر ذلك من شجون الكلام**،القسم الثاني أخبار جزيرة الأندلس،بعناية ليفي بروفنسال،بيروت دار المكشوف،1956، ص246.

-13 نفسه، ج 2، ص 202.

-14ابن عبد الملك أبو عبد الله محمد الأنصاري المراكشي، **الذيل والتكملة لكتابي الموصل والصلة**، بعناية إحسان عباس، بيروت، دار الثقافة، بدون تاريخ، ج 4، ص 195؛ وكذلك ابن الآبار، التكملة، ج3، ص 214.

15 -(1997), p 159.

-16 ابن بلقين عبد الله، **التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بني زيري**، تحقيق أمين توفيق الطيبي، الرباط، منشورات عكاظ، 1995، ص 157.

-17 البيدق أبو بكر الصنهاجي، **أخبار المهدي بن تومرت**، الرباط، دار المنصور، 1971، ص 31.

-18 ابن عذاري، **البيان المغرب**، بعناية إحسان عباس، بيروت، دار الثقافة، ط. 3، 1983، ج 3، ص 277.

-19 ابن عبد الملك، **الذيل**، ج 2، ص 208.

-20 ابن الخطيب، **أعمال** ج 2 ، ص 208.

-21 ابن خاقان أبو نصر الفتح بن محمد بن عبيد الله القيسي الاشبيلي، **قلائد العقيان في محاسن الأعيان**، تحقيق محمد الطاهر عاشور، تونس الدار التونسية للنشر 1990، ص 253-264 ؛ ابن الآبار، التكملة، ج 2، ص247 وج 4، ص90-91؛ ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، حققه وعلق عليه شوقي ضيف، القاهرة، دار المعارف، بدون تاريخ، الجزء الأول، الطبعة الرايعة، الجزء الثاني، الطبعة الثالثة، ج1، ص 287 ؛ ابن عذاري، ج 3، ص 282.

السكان وجميع الطبقات الاجتماعية، كما مر بنا في النص الذي سقناه من كتاب الذيل لابن عبد الملك. والطريف في هذا المجال – وهذا مما يؤسف له أيضا لأن الأمر ناتج عن سوء فهم- أن François Clément الذي اعتمد نصا واحدا[22] للخروج بتفسير جعله قاعدة عامة، يرى أن هنالك فرقا بين "أهل" و"ناس" إذ أن "أهل" قد تدل بحسب رأيه على الخاصة وأن "الناس" قد تدل على العامة.[23] إن النص الذي استعمله لا يوحي بهذا الاستنتاج لأن كلمة "الناس" في اللغة العربية تطلق على جميع الطبقات الاجتماعية وعلى جميع أفراد المجتمع وهذا ما نؤكده بنصين آخرين "قال ما بال الناس، قالوا قامت العامة على السلطان".[24] ويفيد نص آخر المعنى نفسه:"من أي طبقات الناس أنت فأخبرته أني من أهل الأدب من الشعراء".[25] فكلمة "الناس" هنا تعني جميع الطبقات الاجتماعية وهي التي تعني هنا جميع الرعية. وقد وقع François Clément في المشكل نفسه بسبب تأويله لكلمة "أهل" التي رأى أنها قد تعني فئة الخاصة في بعض سياق الكلام. غير أن الأمر بسيط جدا. ففي نص المراكشي الذي سقناه آنفا "فأخبرته أني من أهل الأدب"، يتضح هنا أن أهل تعني فئة الأدباء والشعراء. وهذا ما ينطبق مثلا على:"وكان من أهل الفقه والأدب"[26] وكذلك و"كان من أهل العلم والنباهة".[27] وعندما نقول أهل بيت فلان" وأهل بيت الحاكم" فالأمر هنا يعني أسرته، فهذا كل ما في الأمر. ونستنتج مما سبق أنه ليس هناك أي غموض في هذا الموضوع. ومن ثم فلا علاقة "لأهل" "بالخاصة إلا عندما نقول أن أهل بيت الحاكم هم جزء من الخاصة. وهذا ما يشير له على سبيل المثال نص لابن الخطيب". واتفق رأي الجماعة بقرطبة على محو رسم الخلافة الأموية لعدم الصلح في أهل بيتها وسوء جوار"[28]. فأهل البيت هنا تعنى الأسرة الأموية التي كان يختار منها الخليفة. وهذه الأسرة كان يشكل أفرادها فئة من

---

[22]- استقى النص من الجزءB لمؤلف مجهول الذي نشر مع ابن عذاري، ج 3، ص ص 304-305.

[23]- Pouvoir, (1997), p159.

[24] - الطرطوشي، **سراج الملوك**، بعناية جعفر البياتي، لندن،1990، ص 338.

[25]- المراكشي، **المعجب**، ص 312.

[26]- ابن الآبار، **التكملة**، ج 3، ص90.

[27]- نفسه، ص 242.

[28]- صاعد أبو القاسم ابن أحمد الأندلسي، **طبقات الأمم**، بعناية حياة السعيد بوعلوان، بيروت، دارالطليعة،1985، ص168.

الخاصة. وعندما نجد "وكان أبوه إسماعيل بن بدر أحد وجوه أهل قرطبة"،[29] فأهل هنا تعني المعنى الذي نعرفه أي جميع القرطبيين. بينما "وجوه أهل قرطبة" تعني فئة من "خاصة" قرطبة والمعروفين بها. ومن تم كانت عبارة "وجهاء البلد".

وعندما نجد "وأشرب أهلها (أي الأندلس) خوفا"[30]، فإن ذلك يعني أن الخوف أصاب جميع سكان الأندلس لأن أهل هنا لاتستثني فئة دون أخرى. وهذا ما يؤكده استعمال هذه التسمية في الجملة الآتية: "وصب الله على أهل الثغور من الجبن عن العدو".[31] وكذلك "وضربت على أهلها الإتاوة"[32]، أي أن الضريبة فرضت على جميع سكان المدينة. وهذا ما يؤكد الخطأ الذي وقع فيه François Clément على الرغم من أنه أستاذ للغة العربية. ولعل ما أسقطه في ذلك هو اعتقاده أنه لا يمكن لجميع أهل المدينة أو سكانها أن يقوموا بعمل من الأعمال السياسية أو غيرها من التدابير التي قد تكون في مصلحة المدينة. فرأى أن أهل "تمثل الخاصة مثل ما يشير إليه النص التالي" فلما رأى ذلك أهل طليطلة أرسلوا إلى الطاغية فرذلنذ".[33] بطبيعة الحال لايمكن لجميع سكان المدينة أن يقوموا بهذا العمل. بل هناك فئة من الطليطليين الذين كان لهم وزن اجتماعي واقتصادي ونفوذ، هم الذين قاموا بالمراسلة. ولكن تلك الفئة ما هي إلا جزء من سكان طليطلة. وبما أنه ليس هناك أي رد فعل من الفئات الأخرى، فما قامت به هذه الفئة ليس إلا تعبيرا عن الإرادة العامة لجميع سكان المدينة ولأهلها. ولذلك إذا كانت الفئة صاحبة النفوذ هي التي راسلت، فهي تعبر وتمثل باقي أهل طليطلة الذين يساندونها. ومن ثم "فأهل" هنا تدل على الطليطليين أو سكان المدينة. وعندما نقول أن أهل مدينة كانوا يساندون حاكما من الحكام فهذا لايعني جميع سكان المدينة. لأن هذه العبارة لاتعني إلا الأشخاص الذين عبروا عن رأيهم والذين لهم الحق في ذلك أو الذين يمثلون الأغلبية. وهذا ما يحدث في الانتخابات إذ أن القاصرين والأطفال ومن لايسمح

-29 نفسه، ص 167؛ ابن عبد الملك، السفر 4، ص 60.

-30 ابن بلقين ، **التبيان** ، ص 121.

-31 ابن عذاري ،، ج 3، ص 280.

-32 ابن الخطيب، **أعمال**، ج 2، ص 213.

-33 ابن عذاري، ج 3، ص 282.

لهم القانون التنظيمي بالمشاركة، لايشاركون. ومع ذلك نقول إن أهل المدينة ساندوا حاكما أو ممثلا لهم. ولكن ليس جميع أهل المدينة بل الأغلبية.[34] زيادة على أنه لو كان الأمر كما يذهب إليه François Clément، أي أن أهل تعني الخاصة، لوجدنا من الأولى في النصوص تعابير مثل "وجوه أهل طليطلة" أو "شيوخ أهل طيطلة "أو أعيان أهل طليطلة". فهذا التعبير كان موجودا ولكن كان يتم استعماله لنعت فئة الخاصة. وهو ما يدل على أن استعمال "أهل طليطلة" يفيد معنى سكان المدينة أو أهالي المدينة بما فيهم الخاصة والعامة.

وتمة تسمية أخرى كانت تستعمل لنعت مجموع الرعية وهو "الكافة". فعلي بن يوسف أمر أن تقرأ الرسالة التي أرسلها سنة1129/523 إلى القاضي الوحيدي "على الكافة في المسجد".[35] وللكافة معنى آخر نعود له فيما بعد. وباعتبار ذلك فالكافة هنا تعنى جميع شرائح المجتمع ومختلف فئات الرعية وهي تفيد معنى "الناس" و "أهل البلد".

وهناك تسمية أخرى تفيد المعاني السابقة نفسها وهي "الجمهور". جاء ذلك في عنوان الرسالة التي أرسلها أهل سرقسطة إلى أبي الطاهر تميم "رسالة كتبها قاضي سرقسطة والجمهور".[36] ويورد ابن أبي الخصال التسمية في هذا المعنى نفسه في عبارة "الدعاء له من الجمهور متوال"[37].

ونتيجة لما سبق نتوفر على أربع تسميات تفيد المعنى نفسه "الناس" و"أهل البلد" و"الكافة" و"الجمهور" وكلها تعني مختلف الشرائح الاجتماعية وجميع طبقات الرعية.

---

[34]- انظر حول الموضوع البحث الطريف الذي قام به
Jean-Paul Sartre, Elections, piège à cons; in *Les Temps Modernes*, Janvier1973, p.1099-1108.

[35]- مكي محمود علي (1959-1960)، "وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين (22 رسالة)"، في **مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية**، مدريد، م 7 و8 مزدوج، ص 109-198، ص 174.

[36]- مؤنس حسين، (1949)، **الثغر الأندلسي وسقوط سرقسطة في يد النصارى سنة 1118/512**، مع أربع وثائق جديدة، مكتبة الثقافة الدينية، 1413-1992، ص44؛ عنان محمد عبد الله(1964)، عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، القسم الأول عصر المرابطين وبداية الموحدين، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر،ص538.

[37]- ابن أبي الخصال عبد الله ابن محمد ابن عبد الملك، **رسائل ابن أبي الخصال**، تحقيق محمد رضوان الداية، دمشق، دار الفكر، 1408/1987، ص 116.

وتحت هذه التسميات التي تشمل جميع فئات الرعية تندرج طبقة الخاصة والعامة، ثم هناك تسميات أخرى تندرج ضمن كل من الخاصة والعامة تنعت بها فئات اجتماعية معينة. فأعلى طبقة هي فئة الحكام وأدنى طبقة هي ما يسمى "بالسوقة". وهذا ما يشير إليه المرادي في "أن المدرات درجة رفيعة لا يستغني عنها ملك ولا سوقة".[38] وهو ما يشير إليه أيضا ابن أبي الخصال في "استوت السوقة والملوك".[39] ويصب في هذا المعنى ما يورده ابن عبدون "والملوك أشد الناس ذنبا في الإتلاف.. لأنهم آمنون من الفقر، والسوقة بخلاف ذلك".[40] وإذا كان الحكام هم طائفة من "الخاصة" فإن السوقة تعني بدورها طبقة العامة وهذا ما يؤكده المرادي.[41] كما نجد تسمية أخرى تفيد أيضا معنى العامة وهو المعنى الثاني للكافة. وهو ما يدل عليه النصان التاليان: أرسل يوسف ابن تاشفين سنة 1073/466 رسالة "إلى الأشياخ والأعيان والكافة والخاصة".[42] وكذلك ما يورده ابن العريف "العقلاء عند الكافة دون الخاصة".[43]

ولعل هاتين الطبقتين تشكلان أعلى قطب وأدنى قطب في المجتمع من خاصة وعامة. وإذا كانت الخاصة هي الفئة العليا من المجتمع، فإن هناك عددا من التسميات التي كان ينعت بها أفراد هذه الفئة. ففي بعض سياق الكلام يفهم من "الخاصة" إما أهل البيت أو أسرة الحاكم أو بطانته، وكلها كانت تشكل بدورها جزءا من هذه الطبقة. مثل ما نجده في عبارة "أبو القاسم محمد بن إسماعيل بن عباد...وجميع خاصته وعبيده"[44]. وكذلك:"سيف الدولة وكان له خاصة من المسلمين".[45]

-38 **السياسة**، ص 114.
-39 **رسائل**، ص 33.
-40 ابن عبدون، **رسالة في القضاء والحسبة**، ص 143.
-41 **السياسة**، ص 119.
-42 ابن سماك، **الحلل**، ص 29.
-43 ابن العريف أبو العباس أحمد ابن موسى الصنهاجي ، **مفتاح السعادة وتحقيق طريق السعادة**، دراسة وتحقيق عصمت عبد اللطيف دندش ؛ بيروت دار الغرب الاسلامي، 1993، ص 125.
-44 ابن عذاري، ج 3، ص 200.
-45 نفسه، ص 265.

ونجد تسمية أخرى لنعت الخاصة، لعلها قليلة الورود وهي "البياض": "وأخذ من البياض المقتولين من أهل طليطلة... ألف غفارة من لبوس أهل الرفاهية".[46] وهو ما يفيده أيضا : "ألف رجل من بياض ورعية".[47] وحسب ما يورده لسان العرب في مادة "بيض" فإن بيضة البلد تعني أشراف البلد. ويتضح من خلال النصوص التاريخية التي بين أيدينا أنهم الخاصة أصحاب النفوذ والأموال. ولاشك أنه يتضح مما يورده ابن رشد أن كل من يأتي دون هذه الطبقة يطلق عليه كلمة الرعية. وهو يقصد بذلك طبقة العامة.[48]

كما تؤدي تسمية "الملأ" معنى الخاصة نفسه ويتضح ذلك من النصوص التالية:

"اجتمع الملأ من أهل قرطبة".[49]

"اتفق الملأ على إسناد الأمور".[50]

"ثم اجتمع الملأ على خلعه". [51]

ولا شك أن النص الأول يؤكد ما نذهب إليه، ولكن عندما ننظر إلى النصوص الثلاثة نستخلص أن للملإ معنى آخر. إذ أنها الفئة التي يكون بإمكانها القيام بأعمال معينة وإقرار قرارات خاصة فهي من ثم فئة ذات نفوذ كبير. إلا أن هذه الفئة لابد لها من قاعدة مساندة من أهل المدينة. ولهذا نتوصل إلى أن الملأ يعني الرعية بأجمعها.

ومن التسميات التي تنعت الخاصة نجد "الوجوه والوجهاء" جمع وجيه. وهو ما تدل عليه النصوص التالية : "إسماعيل بن بدر أحد وجوه أهل قرطبة".[52]

46- ابن بسام، **الذخيرة**، القسم 3 ، ج 2، ص 850.

47- ابن رشد أبو الوليد محمد ابن محمد القرطبي، **فتاوي ابن رشد**، تقديم وتحقيق المختار ابن الطاهر التليلي، بيروت، دار الغرب الاسلامي، 1987، 3 أجزاء، ج 3، ص1609.

48- نفسه.

49- ابن عذاري، ج 3، ص186.

50- ابن الخطيب، **أعمال**، ج 2، ص 171-172.

51- ابن الآبار، أبو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعي، **كتاب الحلة السيراء**، حققه وعلق على حواشيه حسين مؤنس، القاهرة، 1963، ج 2، ص251 ؛ ابن عذاري، ج 3، ص 152.

52- صاعد، **طبقات**، ص 167.

"وجوه الناس وأغنياءهم".[53]

"سليمان بن جعفر بن أمية الحضرمي كان من أهل العلم والأدب وأولي النباهة والوجاهة ببلده".[54] و الشيء نفسه تفيده تسمية أعيان البلد" أي الذين لهم مكانة وحظوة داخل المجتمع وهذا ما تفيده الدلائل التالية:"ومعنا الوزير أبو محمد مالك وجماعة من أعيان تلك المسالك".[55] وهو يفيد أن فئة الأعيان تضم القضاة والوزراء والكتاب.

"وكان أبو جعفر أحمد بن محمد المحاربي من أعيان غرناطة ومموليها بالأندلس".[56]

"عبد المنعم بن سالم بن عبد الله بن سماك العاملي من أهل مالقة وعليه أعيانها"[57] ويوحي هذا النص بأن هناك تراتبية داخل فئة الأعيان نظرا لوجود " علية الأعيان" وهذا ما يؤكده نص آخر يشير إلى أن علي بن أبي قاسم يعيش "كان من جلة أعيان بلده"[58].

ويعطي ابن دحية تعريفا للأعيان إذ يفسره بالأشراف:"والإشراف في اللغة الأعيان"[59]. والمعنى نفسه الذي تؤديه تسميتا الوجهاء والأعيان تفيده تسمية "الأكابر" الذي نجده في النص التالي " نفر من أكابرها) أي (اشبيلية) المرتسمين بالوزارة."[60].

وتتضمن تسمية الخاصة، وطبقة الخاصة أيضا، عددا من التسميات التي تنعت بها فئات هذه الطبقة، فنجد فئة الرؤساء جمع "رئيس" والذي هو أصلا من أعيان البلد وأكابرها ووجهائها، والذي ينحدر من إحدى الأسر الكبرى أو الشريفة. ويعرف القلقشندي الرئيس بـ "... من ألقاب علية الناس وأشرافهم. ويقال فيه ريس على وزن قيم قاله الجوهري.

---

[53]- ابن غازي محمد بن أحمد بن محمد العثماني، **الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون**، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، الرباط، المطبعة الملكية، الطبعة الثانية، 1408/1988، ص 18.

[54]- ابن عبد الملك أبو عبد الله محمد بن محمد الأنصاري المراكشي، **الذيل والتكملة لكتابي الموصل والصلة**، بعناية إحسان عباس، بيروت دار الثقافة بدون تاريخ، بقية السفر 4، ص 60.

[55]- ابن خاقان، **قلائد**، ص 418-419.

[56]- السلفي، **أخبار وتراجم أندلسية مستخرجة من معجم السفر**، إعداد وتحقيق إحسان عباس، بيروت دار الثقافة، 1405/1985، ص 27.

[57]- ابن الزبير، أبو جعفر أحمد بن إبراهيم العاصمي الجياني، **كتاب صلة الصلة**، بعناية ليفي بروفنصال، الرباط، المطبعة الاقتصادية 1937، القسم الأخير، ص ص 22-23.

[58]- ابن عبد الملك ، **الذيل**، السفر 4، ص 164.

[59]- ابن دحية أبو الخطاب عمر بن حسن، **المطرب في أشعار أهل المغرب**، تحقيق إبراهيم الأبياري حامد عبد الحميد أحمد بدوي، القاهرة، دار الكتب المصرية، 1997، ص 35.

[60]- ابن عذاري، ج 3، ص 195.

واصله من الرياسة وهي رفعة القدر وعلو الرتبة"[61]. ولا يختلف هذا التعريف كثيرا عما نجده في النصوص التي تتحدث عن هذه التسمية أو بعبارة أخرى التي تتحدث عن أصحاب هذه التسمسة، فابن سعيد يصنف هذه الفئة حسب تعبيره بعد "طبقة الأمراء" ويسميها " طبقة الرؤساء"[62]. ويبدو باعتبار ذلك أن لها وزنا كبيرا في الحياة السياسية والحياة العامة. ونجد ابن الابار يطلق اسم الرئيس على عامل المدينة أبي محمد الزبير بن عمر اللمتوني[63]. وهو بذلك يطلق اسم الرئيس على حاكم المدينة أو عاملها ومن ثم يخالف التصنيف الذي قدمه ابن سعيد لأنه يجعل الأمير رئيسا.ومن أجل ذلك يتفق مع المعنى نفسه الذي أطلق على ملوك الطوائف الذين كانوا يسمون بالرؤساء. وأطلقت التسمية نفسها على القضاة الذين أعلنوا أنفسهم حكاما للمدن ولمناطق نفوذهم عند الحرب الأهلية التي أعقبت سقوط حكم المرابطين بالأندلس. وفي هذا الصدد نجد العبارة الآتية: فعندما أعلن بو جعفر حمدين بن حمدين نفسه حاكما على قرطبة يوم الخميس 5 رمضان سنة 1144/539 "وصارت إليه الرياسة عند اختلال أمر الملثمين "[64]. ونتوفر على أمثلة كثيرة في هذا المعنى[65] وهو ما يتحدث عنه ابن عبدون[66] بشكل واضح، وكذلك ابن بسام في عبارة:الرؤساء والمرؤوسين"[66 مكرر] وهو بذلك يعني الحكام والمحكومين.

بجانب هذا المعنى السياسي تدل تسمية " الرئيس" معنى آخر يفيد ما حدده القلقشندي من قبل حيث أعطاه معنى الشريف أحد وجوه أو أعيان البلد، وهذا ما وصف به ابن الابار

61- القلقشندي أحمد بن علي، **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، شرحه وعلق عليه وقابل نصوصه يوسف علي طويل، بيروت، دار الفكر/ دار الكتب العلمية، 1987/1407، ج6، ص 13.

62- ابن سعيد، **المغرب**، مقدمة المحقق، ج1، ص 9.

63- ابن الأبار محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي، **المعجم في أصحاب الإمام أبي علي الصدفي**، بعناية Franciscus Codera et Zydin، مدريد 1885، ص 135.

64 - ابن الابار، **التكملة**، ج 1، ص 235.

65- يراجع على سبيل المثال: عياض بن موسى بن عيض السبتي، **الغنية**، تحقيق ماهر زهير، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1982/1402، ص 171 وص 176 ، ابن عذاري، ج 3، ص 259 : ابن الخطيب، **أعمال** ، ج 2، ص 258، الضبي ، بغية، ص 361.

66- **رسالة**، ص 3-4.

66 مكرر- **الذخيرة**، القسم 3، ج 1، ص 174.

أبو الحسن بن عشرة من أهل سلا[67]. وما وصف به بنو زهر من أنهم من بيت " كلهم علماء رؤساء حكماء وزراء"[68]. ووصف بيت بني اليحصبي بقرطبة بالنعت نفسه " من بيت كبير مشهور بالرياسة[69]. ويشير ابن الزيات إلى أن عبد الله بن بسام " كان من رؤساء البلد" بسجلماسة[70]. ومن تم تدل تسمية " الريس" بهذا المعنى على فئة من عيان البلد والذين لهم تميز خاص داخل البنية الاجتماعية والاقتصادية. ونجد لتسمية " الرئيس": معنى آخر يتعلق بالتبريز في أحد أصناف المعرفة، ويطلق على الشخص عندما يصبح متخصصا ومتقنا لميدان معرفي أو مجموعة من المعارف ويتمكن من نقلها وتدريسها. والأمثلة متعددة نسوق منها على سبيل المثال ما يتعلق بالأستاذ النحوي أبي الحسن علي بن محمد بن دري الذي "حاز رياسة الاقراء بغرناطة ورياسة جامعها"[71].

وهناك فئة أخرى ضمن إطار الخاصة والمحتمل أنها تأتي بعد الرؤساء وهي فئة "الشيوخ" أو "شيوخ البلد" وهي فئة كانت تتكون من كبار الفقهاء والقضاة، وهم الذين كان لهم دور في الحياة العامة ولهم تأثير على السلطة السياسية.[72] فأبو بكر بن الحديدي كان "أكبر أهل طليطلة... وكان شيخها والمنظور إليه بها"[73]. وكان "عبد الله بن وليد بن أصبغ

67- **التكملة**، ج 3، ص 242.

68- ابن خلكان أبو العباس شمس الدين أحمد ابن محمد ، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، بعناية إحسان عباس، بيروت دار الثقافة، بدون تاريخ، ج 4، ص 436.

69- السلفي/ **معجم**، ص 133 ، ابن الابار، **التكملة**، ج 1، ص 47.

70- ابن الزيات أبو يعقوب يوسف بن يحيى التادلي، **التشوف إلى رجال التصوف**، تحقيق أحمد التوفيق، الرباط، منشورات كلية الآداب بالرباط، 1404 / 1984، ص 98

71- عياض، **الغنية**، ص 155 و ص 175، وكذلك المقري أحمد بن محمد التلمساني، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، بعناية إحسان عباس، بيروت، دار صادر، 1388/1968، ج 1، ص 462.

72- ابن زيان حمو، **واسطة السلوك**، مخطوط، ورقة 78 ب و 79 ابن عذاري، ج 3، ص 196؛ وانظر بالأخص حول "شيوخ البلد":

Monès Husein (1964), « Le rôle des hommes de religion dans l'histoire de l'Espagne musulmane jusqu'à la fin du Califat », in *Studia Islamica*, 20, p 47-88 ;

خلاف محمد عبد الوهاب، **تاريخ القضاء في الأندلس من الفتح الإسلامي إلى نهاية القرن 5 الهجري11 الميلادي**، القاهرة، المؤسسة العربية الحديثة، ص 123.

73- ابن عذاري، ج 3، ص 277.

الأسدي الأليبري من مشايخ غرناطة".[74] وعندما قتل منذر بن يحيى حاكم سرقسطة استدعى "قاضي البلد والمشيخة".[75]

غير أن لتسمية المشيخة معنى آخر تدل عليه النصوص التالية:

-"... أمير المسلمين فاقتضى نظره إيفاد مشيخته من المرابطين"[76]

-"...وكان شيوخ الملثمين يديرون دولة اسحاق بن علي"[77]

وجاء عندما حاصر عبد المومن مراكش :"وفيها اسحاق وجماعة من مشايخ دولتهم"[78]

وكذلك "وانحصر اسحاق أميرهم مع أشياخهم منهم سير بن الحاج وسير بن ينتان وجملة من أعيانهم" [79].

إن المعنى الذي يستفاد للمشيخة او للأشياخ، وبالخصوص انطلاقا من النص الأخير الذي يوضح ذلك، هو تلك الفئة من المرابطين اللمتونيين التي تكون المجتمع السياسي الحاكم المقرب من أمير المسلمين والتي كان لها دور في الحياة السياسية. لأنها كانت تساعده على القيام بعمله وعلى تدبير شؤون الدولة.

تندرج ضمن طبقة الخاصة أيضا فئة أخرى تعتبر من أعيان البلاد، وهي فئة ذوي البيوت أو البيوت الكبيرة[80]، أي الاسر الكبرى **الثرية** والشريفة وهي أسر تحتل منزلة خاصة في المدينة أو في البلد[81]. وتؤكد ادوات بحثنا على هذا الانتماء باعتبار المكانة التي تحتلها الأسرة أو عدد من **أفرادها** داخل المجتمع مثل :

-74 ابن الخطيب، **أعمال**، ج 2، ص 99.

-75 ابن عذاري، ج 3، ص 180؛ **الجزنائي** علي، **جني زهرة الآس في بناء مدينة فاس**، تحقيق عبد الوهاب ابن منصور، الرباط، المطبعة **الملكية**، ط . الثانية، 1991/1411، ص 67.

-76 ابن عذاري، ج 4، ص 56.

-77 ابن الأثير ابو الحسن علي بن أبي الكرم الشيباني، **الكامل في التاريخ**، بعناية C.J. Tornberg ، ليدن بريل، 1864، دار صادر، بيروت، 1979، ج 10، ص 584.

-78 ابن خلكان، ج 7، ص 127.

-79 ابن عذاري المراكشي، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، قسم الموحدين، بعناية ابراهيم الكتاني ومحمد ابن تاويت ومحمد زنيبر وعبد القادر، الدار البيضاء، دار الثقافة، 1985/1406، ص 28.

-80 المرادي، ص 127.

-81 القادري ، (1998)، **مباحث** ، ص 150-156.

- محمد بن أحمد بن جعفر "وهو من بيت وزارة وجلالة"[82].
- "أحمد بن يزيد بن مخلد الأموي" كان من رجالات الأندلس جلالا وكمالا ولا يعلم فيها أعرق من بيته في العلم والنباهة إلا بيت بني مغيث بقرطبة وبيت بني الباجي بإشبيلية[83].
- أحمد بن الفرج التجيبي من أهل قونكة ... وكان من أهل العلم والأدب ومن بيت رياسة بالثغر[84].
- أحمد بن عبد الودود الهلالي غرناطي وكان من بيت علم وقضاء تردد منهم ثمانية عشر قاضيا[85].

وكان ذوو البيوت أو الأسر الكبرى يعتبرون من أعيان البلاد ووجهائها وفي بعض الحالات من رؤسائها كما يدل على ذلك النص الأخير. وكان منهم أيضا فقهاء وقضاة ومشايخ وأصحاب نفوذ لهم مكانتهم الخاصة في حياة المجتمع. إضافة إلى العلاقة التي قد تربطهم بالسلطة السياسية. ومن الأمثلة على هذه البيوت المشهورة نذكر على سبيل المثال بيت بني الملجوم بفاس[86]، وبيت بني مروان بطنجة[87] وبيت بني عشرة بسلا[88]، وبيت بني زهر بإشبيلية[89]، وبيت بني التجيبي ببلنسية[90] وبيت بني مغيث وبيت بني حمدين بقرطبة[91].

أما بالنسبة لطبقة العامة فإن التسميات التي نتوفر عليها وتسميات الفئات التي تندرج ضمنها هي في مجملها نعوت تدل على معان قدحية تشير إلى مستواهم المتدني أخلاقيا[92]

82- ابن الآبار، **التكملة**، ج 1، ص 315.
83- نفسه، ص 120.
84- نفسه، ص 47.
85- ابن عبد الملك، **الذيل والتكملة**، تحقيق محمد ابن شريفة، السفر الأول قسمان، بيروت، دار الثقافة، بدون تاريخ، القسم 1، ص 272.
86- نفسه، تحقيق محمد بن شريفة، السفر الثامن، قسمان، الرباط، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، 1984، القسم 2، ص 430.
87- عياض، **الغنية**، ص 197، عياش، **ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك**، تحقيق سعيد، أعراب، تطوان 1983/1403، ج 8، ص 177.
88- ابن شريفة محمد (1967)،" أسرة بني عشرة تطورها التاريخي ودورها الحضاري"، في **البحث العلمي**، ع 10.
89- ابن خلكان، ج 4، ص 436.
90- ابن عبد الملك، السفر 1 ، ج 2، ص538.
91- ابن الآبار، **التكملة**، ج 1، ص 120.
92- القادري (1998)، **مباحث**، ص 169.

ومعرفيا، ولذلك علاقة بطبيعة الحال بمستواهم الاقتصادي والاجتماعي فتسمية العامة نجدها ترادف كلمة السوقة التي رأينا بأنها أدنى طبقة اجتماعية[93].

كما نجد تسمية "غوغاء الرعية"[94]، التي ترادف تسمية العامة مثل "العوام والغوغاء".[95] ونتوفر على تسمية الدهماء: "وأما العامة والدهماء"[96] والتي تفيد المعنى نفسه كما نعتت العامة " بالسفلة " جمع سافل[97].

ويبدو أن طبقة العامة كانت تتكون من شرائح اجتماعية لم تكن لجميعها الأوصاف والنعوت نفسها. فعندما بويع عبد الرحمان بن هشام الملقب بالمستظهر بقرطبة سنة 414/1031 ثار ضده أبو عبد الرحمان الناصر"مع طائفة من أراذل العوام"[98]. وهذا ما قد يشير إلى أن ثمة فئة من العوام كانت أعلى قدرا من الأراذل.

ويندرج تحت تسمية العامة جميع الشرائح الاجتماعية الدنيا مثل "عامة الناس وخساسهم والعتاة والجهال من ضروب الصناع والعمال"[99]. فهي إذن طبقة زيادة على مستواها الاقتصادي الضعيف خسيسة وعاتية وجاهلة. والجهل الذي تترتب عنه جميع هذه الصفات نجده من الأوصاف المتداولة لهذه الطبقة "والعوام ومن لا معرفة له بالشريعة"[100]. ونظرا لجهلهم فإنهم بعيدون عن الميدان العلمي والمعرفي. ولهذا فإنهم كانوا يستغلون في بعض الأغراض السياسية كما كانت لهم مواقف عدائية من بعض الفلاسفة والعلماء مثل ما حدث لا بن باجة الذي "بلي بمحن كثيرة وشناعات من العوام وقصدوا هلاكه مرات وسلمه الله"[101].

93- المرادي، ص 114 و ص 119.
94- ابن بسام، القسم 4 ، ج 1، ص 365.
95- الطرطوشي ، **كتاب الحوادث والبدع**، ص 169-170.
96- ابن زيان حمو، **واسطة**، مخطوط، 79 أ ؛ ابن سعيد، **المغرب**، ج 2، ص 195.
97- ابن عذاري، ج 4، ص 93.
98- الحميدي، أبو عبد الله بن أبي النصر الأزدي، **جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس**، القاهرة، بيروت، دار الكتاب المصري، ط. الثانية ، 1983/1403، ص 56-57.
99- ابن عبدون، **رسالة**، ص 20.
100- الطرطوشي، **الحوادث**، ص 282.
101- ابن أبي أصيبعة موقف الدين أبو العباس أحمد، **عيون الأنباء في طبقة الأطباء**، بيروت، دار الثقافة، ط. الرابعة، 1987/1408،ج3، ص100.

غير أن ابن زهر يصفهم في الميدان الصيدلي ومعرفة الأدوية بمهارة وخبرة كبيرين قد تفوق ما يعرفه الطبيب[102].

وتوصف العامة أيضا بالشر وبالإسراع إلى الفوضى وإذكاء نار الاضطراب والفتنة داخل المجتمع "لأن العامة الغالب عليهن الشرار والمرج واضطراب"[103]. كما أنها "مجبولة على الفساد واتباع الاهواء وقلة السداد"[104]. ومن ثم نصح المرادي الحاكم بعدم مجالستهم وصنفهم في "أصحاب الصنائع والحرف والخدام والعبيد"[105].

ونتيجة لما سبق فتسمية العامة تضم التسميات التالية : "السوقة" و"الغوغاء" و"الدهماء" و"الجهال" و"السفلة" و"الخساس". وكلها نعوث قدحية لأصحاب هذه الطبقة التي كانت تتكون من الحرفيين والصناع والمستخدمين وأصحاب الدخل المحدود والفئات الدنيا من البنية الاجتماعية[106]. ويتضح من خلال التسميات التي ينعث بها أفرد طبقة الخاصة وتلك النى ينعث بها أفراد طبقة العامة، أن كل طبقة منهما تمثل مجموعة عكس الأخرى وهي نقيضها.

عز الدين جسوس
كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الجديدة

102- ابن زهر أبو مروان عبد الملك، **كتاب التيسير في المداواة والتدبير**، تحقيق ميشيل الخوري، دمشق دار الفكر، 1403-1983، ص 251.
103- ابن زيان حمو، **واسطة**، مخطوط، ورقة 79 أ.
104- نفسه.
105- السياسة، ص 78.
106- انظر بالأخص حول هذه الفئة، القادري (1998)، **مباحث**، ص 169-215.